

بنجامين فرنكلين

ألف الكتاب أستاذنا عباس محمود العقاد.

لأن العقاد نصير الحرية، إلى الحد الذي عرف الجمال بأنه الحرية مع أن الجمال عدل الحرية وصنوها ألف عن راعية من دعاة الحرية بنجامين فرنكلين.

والحرية عند عملاق الفكر العربي، حرية العقل وحرية الإرادة وحرية الإنسان من قبل ومن بعد

ومن هنا نفهم سر رزمة صورة قلمية لبنجامين فرنكلين لأنه من أصحاب المبادئ دعا إلى احترام، الكرامة الإنسانية، ومحو العنصرية، وتدعيم التفاهم المشترك وتبادل احترام العقائد المختلفة، والتمسك بالحرية في مختلف صورها، والدعوة إتاحة الفرص المتكافئة للجميع.. ولهذا سميت باسمه عشرات المؤسسات والهيئات العلمية والأدبية.

ولم يكن العقاد وحده بين الأفاضل الذين أشادوا به فهو كما يقول الإنسان وافر النصيب من ثناء الناس، ومن ثناء الذين لا يثنون على أحد إلا بمقدار، وقلمما يثنون بمقدار. حياه فولتير فسماه «فرانكلين المجيد الحكيم».

وخاطبه الرئيس واشنطن فقال: «إذا كان التبجيل إكراما للخير، وإذا كان الإعجاب إكراما للنبوغ، وإذا كان التقدير للوطنية والحب للإنسانية، خليفة أن تلهم عقل الإنسان الرضا والغبطة، فلا مشاحة يتوافر لك السلوان بالحياة التي لا تذهب سدى»

ومن الطريف ما قاله ليونل الفين Lionel Elvin في كتابه رجال أمريكا.

«كان للحياة في نفسه حب وعلاقات شتى، وكان يحس المتعة باللفظ ويجذب إليه القلوب ويملكها بتلك المودة التي تنجم من القناعة العميقة والصفاء القدير»

«الصفاء القدير» من أجمل الأوصاف التي تشير إلى الرضا النفسي والسلام.. سلام الأعماق.

صورة قلمية أو نمط خاص كتابة العقاد عن فرانكلين

وإذا كانت الشخصية متعددة الجوانب، غنية باللحمات والقدرات فإن تناولها قيمة كبرى يطرد القول فيها جوهرها، لا تفسده التفاصيل فهو مع بنيامين فرانكلين يعطى صوراً متتابعة لهذه الشخصية أو لهذه العبقريّة دون أن يحفل فيها بسجل الأرقام ولا بإحصاء الأيام ولم يكتبها ليبدأ فيها بسنة الولادة ويختمها بسنة الوفاة ويمضي فيها مع التقويم شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام ولكنه عمد الى عرضها (لمحة بعد لمحة تنم بها ملامح الصورة بعد الفراغ من النظر اليها، وقد يتابعها القارئ فلا يفوته مع ذلك سجل الأرقام ولا إحصاء الأيام وإنما يلم بها حيث يعبرها في طريقه، ويستغنى عنها بعد ذلك إذا شاء، أو يبقيا على حد سواء).

كتب فرانكلين سيرته التي سماها «مفكرات» في أربعة أجزاء في أوقات متعددة وأماكن متفرقة

كتب الجزء الأول في إنجلترا وهو في الخامسة والستين من عمره

وكتب الجزء الثاني في باس في فرنسا بعد ذلك بثلاث عشرة سنة أي سنة ١٧٨٤، أي في الثامنة والسبعين.

وكتب الجزء الثالث بعد أربع سنوات ١٧٨٨ على اثر عودته الى فلادلفيا، أي في الثانية والثمانين.

ثم الجزء الرابع ما بين ١٧٨٩-١٧٩٠ قبل وفاته بفترة وجيزة، أي في الرابعة والثمانين. يقول الأستاذ العقاد:

لا توجد بين الترجمات الذاتية ترجمة لها نصيب هذه الترجمة من الاقبال والقراءة العامة. وأحسب ذلك لبساطتها وصدقها

يقول فرانكلين في سخرية عذبة (إنه كتبها ليرضى شهوة التحدث عن النفس التي تملك الشيوخ في أخريات أيامهم دون أن يضجر أحداً من سامعيه لأنهم أحرار في السماع أو الإعراض وأنه لا يكتف عن القارئ أنه فخور بنجاحه ولا يبدأ الكلام قائلاً على سبيل الاعتذار «بلا فخر ولا ادعاء» ثم يتلوه كلام كله فخر وادعاء!)

ويمثل هذا الأسلوب كما يقول الأستاذ العقاد، بجزء الفخر من شوكتة المؤذية ويجرد التواضع من طلائه الكاذب، ويقف «بأنسانيته» الضعيفة القوية بين أيدي إخوته من الناس.. الله يا أستاذنا العقاد

كتبت عنه مرجريت كوسين Cousins كتابا حفل بال نوادر أعرض منه هذه النادرة التي ترسم بعدا هاما من أبعاد شخصيته.. رآه شاب من شارلستون يسمى فيليب ماكنزى وهو فى السبعين فكتب إلى صديق له يقول: إنه يقارب خمس أقدام وتسعة قراريط وبدنه أضخم مما يناسب طوله، وعينه رماديتان نفاذتان كالصلب الحديد. وله رأس كبير وجبين عال وعلى خذه الأيسر خال. لا يلبس الشعر المستعار وشعره الطبيعى مرسل يتدلى على كتفيه، ومن الغريب أنه لم يخطه الشيب إلا قليلا مع أنه فى السبعين.. وقد تحدث إلى أعظم العظماء فى العالم ولكنه كان يصفى الى تعليقاتى المفردة كأنها تستحق الإصغاء حقا، وقد أبدت ملاحظاتى هذه بعد انصرافه لصديقى ايدرو تلدج فضحك وقال لى.. إياك أن تخطيء فهمه إن الدكتور فرنكلين كان مهتما حقا وأنت لا تعرف فإنه ليهتم بكل شىء وكل انسان. ويعنيه من تكون أنت وماذا عملت فى حياتك».

وهنا يعلق الأستاذ العقاد محللا:

واهتمام فرنكلين هذا الاهتمام بكل شىء وبكل إنسان هو موطن العجب والإعجاب بتلك القدرة التى صمدت لمهام الحياة طوال ذلك العمر المديد ولم تبخل على مهمة منها بحققها من العناية ولا على أحد بحقه من المبالاة، وبقي الرجل بعد هذه التكاليف جميعا وكأنه فى وهم من يراه من لايهتم بشىء ولا يكثر لخطب ولا يرى على حال من القلق والاضطراب.

وليس أكبر من الحوادث والأنباء التى اعترضت هذه الحياة فى مراحل طريقها، بل طرقها العديدة،

أنشأ اخوه جيمس صحيفة «دى انجلاند كورانت» رابع صحيفة فى المستعمرات سنة ١٧٢١. ثم سجن لانتقاداته السياسية فحررها بنيامين فرانكلين وله من العمر خمسة عشر عاما!!

ولكنه لم يستمر فى مهنة الصحافة فقد عمل طباعا من ١٧٣٠-١٧٤٨ ثم عاد إلى الصحافة والحياة العامة فى الثانية والأربعين من عمره وفى سنة ١٧٤٣ أسس جماعة الفلسفة الأمريكية وتناط به أمانة سرها وفى سنة ١٧٤٩ اشتغل بالبحث العلمى وأثبت الكهربية فى الصواعق واخترع عمود الصاعقة وذاعت شهرته العلمية.

ثم انخرط فى سلك الحياة النيابية دون أن يعزل عن أبحاثه العلمية.

والتفكير العلمي بتقنيته ودقته وموضوعيته والتزامه وجدله وصبره صفات نوابع انعكست على أعماله جميعاً حتى البسيط.. وهذا معنى قول الأستاذ العقاد (كانت ملكته العلمية ملحوظة في جميع أعماله على اختلافها، فكان عالماً في سياسته، وكان عالماً في صناعاته اليدوية والفكرية، وكان عالماً في وظائفه الإدارية، وكان عالماً في معيشته اليومية. (والملكة العلمية) بصيغة المفرد عنوان لصفات كثيرة قد تجتمع للعالم الواحد وقد تتفرق بين كثير من العلماء، ولكنها في جملتها لم تتوافر للكثيرين كما توافرت لفرنكولين من بواكير صباه إلى ختام حياته.

ولما كانت الملكة العلمية تعنى فيما تعنى: القياس، والتسجيل فقد كان فرنكولين يرصد نفسه أى أعماله وسلوكه على الورق ويستدل منه على مبلغه من التقدم منه ومبلغ الصعوبة أو السهولة فى هذا التقدم على توالى الأيام!!

وبهذه الطريقة علم نفسه الكتابة أو التعبير الصحيح على الأقل فإن الكتابة الرقيقة موهبة يمنحها الله من يشاء.

وراض نفسه على محاسن الأخلاق فأحصى الأخلاق المثلى وحصرها فى الاعتدال، الصمت، النظام، العزيمة، القصد، النشاط، الاخلاص، العدل، التقدير، النظافة، السكينة، العفة ومن الطريف ان بعض أصدقائه أنبأه أنه يوصف أحياناً بالكبرياء فأضاف الى هذه الأخلاق، خلق التواضع.

ومن طرائفه أنه جعل لهذه الأخلاق، درجات يومية كل أسبوع، وأخذ نفسه بتقدير هذه الدرجات ومحاسبة ضميره عليها، لىبدأ الأسبوع التالى على عزيمة وبصيرة بخطة من النجاح والإخفاق.

وهكذا كان يصطحب مقياسه العلمى فى معيشته اليومية كما يقول الأستاذ العقاد وفى ملاحظاته العارضة ولا ينتهى الى حكم فيها إلا على قدر معلوم وحساب مرقوم.

أما فرنكولين الكاتب فإنه يقول فى ترجمة لنفسه إنه لا يذكر زمناً لم يكن يقرأ فيه، وهذا مع ذاكرته القوية التى أعانته على حفظ الكلمات وادخار المفردات والعبارات واستيعاب ذلك

المحصول اللفظي، والفكري الذي يسر له الكتابة المشوقة بأسهل أسلوب. ولم يبلغ السادسة عشرة حتى كان قد استوعب العشرات من أمهات الكتب النافعة من قبيل تراجم «بلونارك» و«زيروفون» ودراسات «لوك دنشافتسبري» ورسائل «ديفوي» ومقالات «كوتون لمانر» وغيرهم.

أما فرنكلين السياسي فأهم ملامحه أنه

- لاحظ العبيد المحررين ظلوا في حياة الحرية فقراء يحترفون الحرف الوضيعة فقال ان العيب ليس في الطبيعة أو هو دائم لا يتغير بتغير الأحوال، وإنما يرجع إلى نقص التعليم والمران، وأن الزنجي ذو ملكات حسنة واستعداد كامل للفنون، ولذلك يحذق الموسيقى ويرع فيها، ولو تعلم فنا غيرها لما ظهر فيه.

- انه كان يرى أن الرق مفسدة للمجتمع الذي يشيع فيه، لأنه يركن بالسادة الى الكسل ويفرغ الأطفال بالكبرياء والتجبر في الأسر التي تملك الرقيق.

- كان من رأيه أن العمل هو معيار الثروة، فليس الذهب والفضة معيارا ثابتا لها لأنها سلعة تتقلب بالأسعار كما تتقلب بسائر السلع، وإنما تقاس الثروة، ثروة الأمة بمقياس الأعمال التي تحصل عليها، وليست هذه الأعمال وقفا على الصناعات البدنية وما إليها، بل هي تشمل أعمال الحضارة بأجمعها، وكلما اقتدر المجتمع على توفير تلك الأعمال كانت قدرته هذه مقياسا لغناه.

ومن طرائفه أنه كان يشجع عملة الورق ويقول انها رمز العمل وأن الأغنياء يعارضونها لأنهم يملكون الذهب والفضة ويحبون أن يقيسوا الثروة بمقياس ما يملكون.

ولا يعادى فرنكلين صناعات الترف لأنها على اعتقاده حافز للهمم وسبيل الى دوران الثروة بين العاملين والمترفين.

- كان ايمانه بحق الحكم يقوم على قاعدة واحدة وهي التي نسميها اليوم قاعدة تقرير المصير.

فى الكتاب صفحات طويلة عن (السياسى) وكيف يصنع فى كل عصر.. ولم تكن هذه الأوصاف جميعا تنطبق على بنيامين فرنكلين.. ومع هذا بلغ من السياسة ذروة تكفى صاحبها فى باب التاريخ.

إن بلاده كما يقول الأستاذ العقاد (قد أصبحت أمة متحدة بفكرة جريئة واسعة هي فكرة الاتحاد، وقد كان فرنكلين صاحب الدعوة الأولى الى هذا الاتحاد).

ولم يكن فرنكلين عالم سياسة ليصل إلى هذه الذروة ولكنه (سياسى بالطبع) والسياسى بالطبع كما يقول الأستاذ العقاد مرة أخرى (يصنع السياسة على يديه ويصنع لكل ساعة سياستها التي تمليها الحوادث عليه).

نأتى إلى فرنكلين الفيلسوف

كان دافيد هيوم يسمى فرنكلين الفيلسوف الأول باعتبار وجد أنظار القارة الأوربية الى عالم الفكر فى الديار الأمريكية.

وكانت الأندية الأدبية فى باريس تسميه الفيلسوف أو الدكتور ولا تردفه بالاسم فيفهم السامع أنهم يعنون فرنكلين.

وهنا يعلق الأستاذ العقاد فى إحكام وبلاغ.

ولم يكن ملقبوه بهذا اللقب مخطين من وجهة العرف ولا من الوجهة العلمية فى عصره. فقد كان فرنكلين فيلسوفا بكل معانى الكلمة إلا هذا المعنى الحديث الذى غلب على الفلسفة بعد عصره وبعد شيوع التفرقة بين المعارف الإنسانية ثم شيوع التخصص فى كل معرفة منها.

ويزيد به الفلسفة التي غلبت على بحوث «ما بعد الطبيعة» وقضايا المنطق النظرى وكادت تنحصر فيها. فهذا هو مجال الفلسفة التي لم يكن فيه فرنكلين من زمرة الفلاسفة، ولم يرد أن يكون منها» ولا نخاله كان يستطيع أن يكونه لو أراد، لأنه مجال لا تألفه طبيعته ولا يألفه تفكيره ولا يرجى فيه أن يأتي فيه بما يفيد.

كان فرنكلين فيلسوفا بمعنى الكلمة القديمة. وهو (محببة الحكمة ورياضة النفس على اتباعها في أحوال الحياة اليومية).

وفي كتابة فرنكلين عمق إنساني من محبة الحكمة، يتمثل في مقاله الذي سماه «دفاع مسزبولي بيكر». وهو دفاع خاطئه تصارح المجتمع الذي ساقها إلى الخطيئة وحاسبها وحدها وترك غريمها.

وهنا أجرى فرنكلين على لسانها هذا الدفاع

أرجو أن تعلموا جميعاً أن هذا الخاطئ قد أصبح قاضياً في هذا الاقليم ولكن وددت لو كان جالساً اليوم بينكم على منصة القضاء عسى أن يوصيكم بالرفق في توقيع الخراء على، وكنت اذن لا أبالي أن أذكر ما ذكرت من أمره. ولكنني أقول الآن مضطرة إنه ليس بالعدل ولا بالمساواة في الجزاء، وأنه ليس من الأنصاف أن يكون المسيء إلىّ والمسخلى عني والسبب الذي أوقعني في كل جريرة - آمناً مترقياً الى مناصب الشرف في الدولة التي تدينني بوصمة العار والمسبة.

نأتى الى فصل فرنكلين «الانسان» وقد استهله الاستاذ العقاد بكلمات شاعت في كتابة من كتبوا عنه أو هي صفات وضعت له :

دنيوى .. عصرى .. انساني .. نفعى .. ساخر .. طينه عادية مستر امريكان.

هذه كلمات كما يقول الاستاذ العقاد، وصف بها فرنكلين، وأراد واصفوه بها أن يحصروه في قشرة بندقة كما يقولون في اصطلاحات الغرب، فأصاب كل منهم إصابة لا خلاف عليها، وأخطأ كل منهم خطأ لا بد أن يستدرك عند الإحاطة بصفات فرنكلين..

والحقيقة أن هذا الفصل من أمتع فصول الكتاب.

الى هنا انتهى الجزء الأول من هذا الكتاب أما الجزء الثاني فقد سماه الاستاذ العقاد: من فرانكلين.

وفى هذا الجزء طائفة من مآثورات فرنكليين مثل
 - ما تلاقى الطمع والسعادة قط ، فكيف يتعارفان
 - الفقر يطلب بعض الأشياء .. والترف يطلب كثيرا من الأشياء والطمع يطلب جميع
 الأشياء .

- السمك والضيوف تفوح لهم رائحة بعد ثلاثة أيام .
 - ما من واعظ أو عظم من النملة ، وهي لا تنبس بكلمة
 - ثلاثة يحفظون السر إذا مات منهم اثنان
 - افتح عينك كلها قبل الزواج .. ولا تفتحها كلها بعده .

ورسائل فرنكليين متعة وحدها
 كتب مرة رسالة الى صديق سماها (معاهدة مع سيدة)
 استهلها بقوله :

ما أبعد الفارق بينك وبينى !! إنك تعدين عيوبى كثيرة حتى لقد تربو على الإحصاء ، وأنا لا
 أرى لك إلا عيبا واحدا لعله من عيوب نظارتى ! ذاك ضرب من الطمع يوحى إليك أن تعظمى
 عاطفتى وتستأثرى بها وحدك حتى لا بقيه فيها لواحدة من سيدات وطنك المحبوبات .

(المسألة) كالألحان العذبة التى توقعينها على المعزف ببراعتك الأملعية ، ويستمتع لها عشرون
 فيغبطون بسماعها ولا يغض ذلك من نصيبى الذى تريد أن يخصنى منها . وقد يحق لى إذن أن
 أضالك بمنعها أن تصل الى اذن غير أذنى .

أقول إن قوله هذا مع براعة أسلوبه ، فيه مغالطة .
 ولكن الطريف هنا أنه وضع فى هذه الرسالة معاهدة حب .

المادة الأولى

يتقرر السلام الدائم مع الحب والصداقة بين الطرفين
 مدام بربون ومستر فرنكليين

المادة الثانية

لدوام هذه العلاقات تقبل المدام من جانبها أن يكون مستر فرنكلين على استعداد لتلبية الدعوة كلما خطر لها أن تدعوه الى حضرتها.

المادة الثالثة

على مستر فرنكلين أن يبقى بعد حضوره طالما سمحت له بالبقاء

المادة الرابعة

إذا وحد معها فعليه أن يتناول الشاي وأن يلعب الشطرنج وأن يستمع إلى الموسيقى وأن يستجيب لكل أمر يصدر اليه من جانبها.

المادة الخامسة

عليه ألا يحب امرأة قط غيرها

المادة السادسة

والمذكور فرنكلين يتعهد من جانبه أن ينصرف من عندها حين يشاء

المادة السابعة

ويتعهد المذكور أيضا بالتغيب كما يشاء،

وتمضى المواد الأخرى فى سخرية وطرافة ثم يختتم الرسالة بقوله:

وأرجو أن أسمع رأيك فى هذه القواعد المبدئية... وفى رأيى أنها أصدق تعبيراً عن المقاصد والنيات التى يرضاها الطرفان من أكثر المعاهدات، وبودى أن ألح وأصر على قبول المادة الثانية وإن لم يكن أملئ عظيمما فى قبولها، وكذلك ألح وأصر على قبول المادة التاسعة وإن كنت على بأس من لقاء المرأة التى تستولى منى على حب يضارع حبنى اياك أيتها الصديقة العزيزة .

وهكذا يسافر بنا الاستاذ العقاد فى أعماق شخصية ذات آفاق وأعماق